الفصل الرابع

عنترة العبسى ..

بين الأسطورة والحقيقة

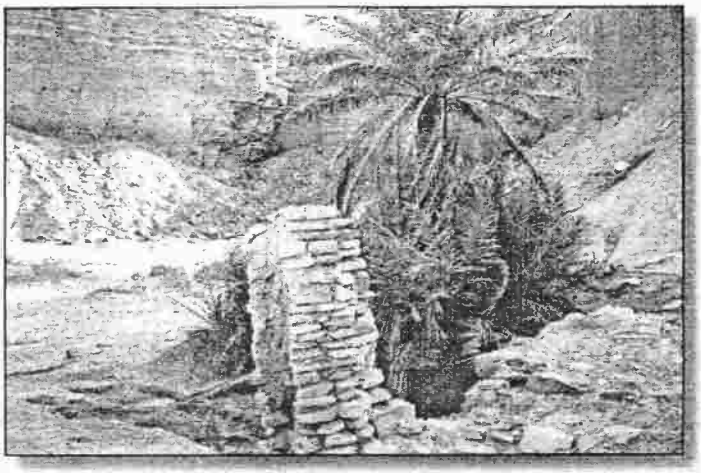

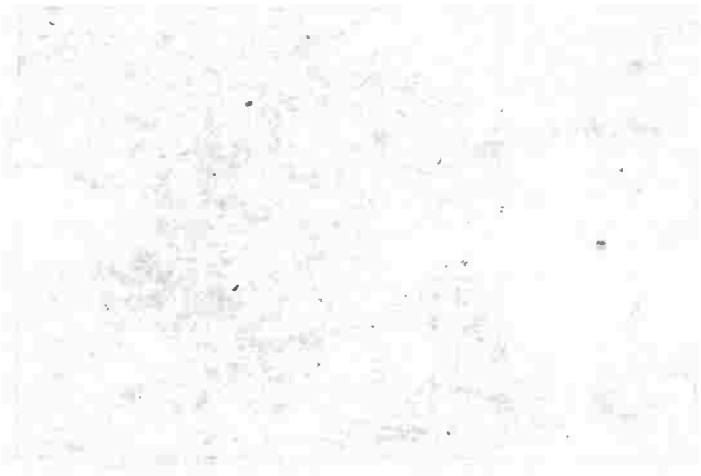

من أنت يا عنترة..؟

هـل كنـتَ أنت.. أو أن خيال البدو الرّحل أبداً فى التيه قد ابتكر شـخصيتك ووضع فيها كل الصفات المرجّوة – أو تلك التى تتوزع على كثير من الناس.. فصرت أسطورة تتحرك على رمل التصورات..

هل أنتَ.. أنتُ..

أو أن الدكتور طه حسـين كان مُحِقاً حين كاد ينفى وجودك ذاته حين قال فى كتابه «حديث الأربعاء»:

... «ألسـت ترى أنهم سـيلقونه بمثل ما تلقى به عنـترة العرب الجاهلين من الشك والإنكار».

أو حـين شـكّك فيما وصل إلينا مـن أنبائك وأخبارك بقولـه أيضاً – فى نفس الكتاب:

«وما الذى تشـك فيه من أنبائه وأخباره» أو حين شـكك فى معلقتك ذاتها حين قـال «إنما أحب أن أتحدث أو نتحدث إن شـئت عن هـذه القصيدة المطوّلة التى تضاف إلى عنترة وتُعدُّ بين السبع أو العشر المطولات والتى مهما تنكرها وتشك فيها فلن تستطيع أن تنكر أنها قصيدة قديمة».

بل إنه فى كتابه «فى الأدب الجاهلى» ينفى هذا الشـعر، وأنه منحول مصنوع مضاف إلى عنترة مثل نفيه لكثير من الشعراء الراسخين بقوله:

«ولا أضعف عن أن أعلن إليك وإلى غيرك من القراء أن ما تقرؤه على أنه شعر امرئ القيس أو طرفة أو ابن كلثوم أو عنترة ليس من هؤلاء الناس فى شىء وإنما هو نحل الرواة أو اختلاف الأعراب أو صنعة القصاص أو اختراع المفسرين والمحدثين والمتكلمين» وهو شك يستند إلى شكوك القدماء أيضاً وإن اختلفت فيه الرؤية، والتى – فى حالتنا هذه – لم تنف «وجود» عنترة وإنما «وجود» بعض الإضافات فى المعلقة، فابن سلام فى كتابه «طبقات فحول الشعراء» يشير إلى أن المعلقة تبدأ بالبيت:

يا دار عبلةَ بالجواءِ تكلمى وعِمِى مساءً دارَ عبلةَ وانعمى

وفى كتابه «الأغانى» يشير أبو الفرج الأصبهانى «أو الأصفهانى» إلى أن مطلع المعلقة المعروف «هل غادر الشعراء من متردم» ليس لعنترة ويقول: «هل غادر الشعراء – البيت – يدفع أكثر الرواة أن يكون لعنترة وممن يدفعه الأصمعى وابن الإعرابى وأول القصيدة عندهما «يا دار عبلة» فذكر أبو عمرو الشيبانى أنه لم يكن يرويه حتى سمع أبا حزام العكلى يرويه له».

وأورد الأعلم الشنتمرى فى شرح ديوان عنترة القصيدة التى مطلعها:

طربتَ وهاجتكَ الظباءُ السوانحُ غداةَ غَداَ منها سنيحٌ وبارحُ

وتبلغ القصيدة واحداً وعشرين بيتاً فبعد أن نسب الأعلام القصيدة لعنترة. قال «ويقال إنها منحولة»..

وإذا عدنا إلى شك الدكتور طه حسين لوجدنا فيه الكثير خاصة حين يتعرض لنحل الشعر الجاهلى فى كتابه «فى الأدب الجاهلى» أيضاً حين يقول:

«فأول شىء أفجؤك به فى هذا الحديث هو أننى شككت فى قيمة الأدب الجاهلى وألححت فى الشك، أو قل ألح علىّ الشك فأخذت أبحث وأفكر وأقرأ وأتدبر حتى انتهى بى هذا كله إلى شىء ألا يكن يقيناً فهو قريب اليقين ذلك أن الكثرة المطلقة مما نسميه أدباً جاهلياً ليست من الجاهلية فى شىء وإنما هى منحولة بعد ظهور الإسلام».

وهو يرى أن هذا الشعر لا يمثل الحياة الدينية والعقلية والسياسية والاقتصادية للعرب الجاهليين ولا يمثل اللغة الجاهلية ويرى أن من أسباب نحل الشعراء السياسة والدين فيقول: إن الأشعار المنسوبة فى السيرة إلى أحبار اليهود ورهبان النصارى وكهان العرب إنما هى موضوعة فى الإسلام كما أن من أسباب نحل الشعر القصصى والقصص فالقصاصون يستعينون بأناس يصنعون لهم الأشعار ومن أسباب نحل الشعر الرواة فهم يصنعون الشعر للإشادة بالكرام وجمع المال والظهور على الخصوم.

وللدكتور عبدالرحمن بدوى رأى فى رأى الدكتور طه حسين حين يقول فى مقدمة كتابه «دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلى» أن ما قاله الدكتور طه حسين عن انتحال الشعر الجاهلى وفساد رواته وما أضيف إليه أو حذف منه هو كلام سبق أن قاله وأشبع القول فيه علماء الأدب واللغة القدماء منذ القرن الثانى للهجرة وخصوصاً فى القرنين الثالث والرابع ويكفى المرء أن يفتح الصفحات الأولى من كتاب «طبقات الشعراء» لمحمد بن سلام الجمحى «١٣٤ - ٢٣١ هـ» ليقرأ فيه الآتى:

- «وفى الشعر مصنوع مفتعل وموضوع كثير لا خير فيه».

وكان ممن أفسد الشعر وهجنه وحمل كل غثاء منه محمد بن إسحق بن يسار.. فقبل الناس عنه الأشعار وكان يعتذر منها ويقول لا علم لى بالشعر أتينا به فأحمله، ولم يكن ذلك له عذراً فكتب فى السير أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعراً قط وأشعار النساء فضلاً عن الرجال ثم جاوز ذلك إلى عاد وثمود فكتب لهم أشعاراً كثيرة.. أفلا يرجع إلى نفسه فيقول من حمل هذا الشعر؟ ومن أداه منذ آلاف السنين» ثم قال بعد ذلك «نحن لا نقيم فى النسب ما فوق عدنان ولا نجد لأولية العرب المعروفين شعراً فكيف بعاد وثمود فهذا الكلام الواهن الخبيث.. وقال أبوعمرو بن العلاء فى ذلك: ما لسان حمير وأقاصى اليمن اليوم بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا فكيف على عهد عاد وثمود مع تداعيه ووهيه..؟!

– «خلف بن حيان أبى محرز وهو خلف الأحمر اجتمع أصحابنا أنه كان أفرس الناس ببيت شعر وأصدق لساناً».

فجاء الإسلام فتشاغلت عنه «أى الشعر» العرب وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم ولهت عن الشعر ورواته فلما كثر الإسلام وجاءت الفتوح واطمأن العرب بالأمصار راجعوا رواية الشعر فلم يؤولوا إلى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب وألفوا ذلك وقد هلك من العرب مَنْ هلك بالموت والقتل فحفظوا أقل ذلك وذهب عليهم منه كثير.. قال أبو عمرو بن العلاء ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير».

وقال ابن سلام «فلما راجعت العرب رواية الشعر وذكر أيامها ومآثرها استقلل بعض العشائر شعر شعرائهم وما ذهب من ذكر وقائعهم، وكان قوم قلّت وقائعهم وأشعارهم فأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار فقالوا على ألسنة شعرائهم، ثم كانت الرواة بعد ذلك فزادوا فى الأشعار التى قيلت».

وكان أول الباحثين المحدثين الذين تناولوا هذا الموضوع بالتفصيل هو شيخ المستشرقين الألمان «ثيودور نيلدكه» سنة ١٨٦١ أى قبل الدكتور طه حسين بخمسة وستين عاماً وقد استعان بنتائج البحث فى اللغات السامية وما كشفت عنه النقوش الحميرية والسبأية وفى اليمن الجنوبية عموماً وتلاه «ألفرت» سنة ١٨٧٢ فأشبع القول المفصل فى قصائد من هذا الشعر الجاهلى بعنوان «العقد الثمين فى دواوين الشعراء الجاهليين» كما استقصى أخبار ونقد الرواة وخصَّ «خلف الأحمر» ببحث مفرد كما تطرق إلى الموضوع – بمناسبة نشر ديوان «الحطيئة» – المستشرق الشهير «جولد تسيهر» لكنه لم يزد على سابقيه شيئاً يذكر، أما «ديفيد صمويل مرجوليوث» فقد خطا خطوة واسعة استغل فيها نتائج النقوش الحميرية والعربية الجنوبية وركز على الدوافع الدينية فى انتحال الشعر الجاهلى والتغيير فى روايته زيادة أو نقصاً أو تحريفاً.

ويقول مرجوليوث فى بحثه «أن الكمية الهائلة من النقوش التى ترجع إلى ما قبل الإسلام والتى نملكها الآن مكتوبة بعدة لهجات ليس فيها شىء من الشعر

وهذه واقعة تسترعى النظر خصوصاً فيما يتعلق بالنقوش على المقابر لأن معظم الأمم ذوات الآداب تدخل الشعر فى الكتابات التى من هذا النوع».

ويذهب البحث إلى أن الخليل بن أحمد «المتوفى سنة ١٧٠ هـ» حين قدم نظام العروض الذى صرح بأنه استمده من القبائل العربية فإن معاصره ياقوت الحموى قدم كتابه «إرشاد الأديب» الذى أراد أن يثبت فيه أن هذا النظام كله وهم، وليس من الواضح متىّ بدأ العرب فى نظم الشعر وحسبما يقول الأثريون المسلمون أىّ الرواة القدماء الذين رووا الشعر العربى القديم السابق على الإسلام أن الأشعار إنما كتبت بالعربية التى كُتب بها القرآن لكن يبدو أن الرأى العام يقرر أن الشعر العربى – على الشكل الذى استقر عليه فيما بعد – بدأ قبل ظهور الإسلام ببضعة أجيال قليلة ويتفق الأب شيخو فى كتابه «شعراء النصرانية» على الرأى الذى أورده صاحب الأغانى ومفاده أن المهلهل أخا كليب – وقد ازدهر حوالى سنة ٥٣١ ميلادية – ووُصف بأنه أحد مفاخر بنى بكر بنى وائل كان أول من قصّد القصائد الطوال وأدخل فيها الغزل، لكن هذه الدعوى مُتنازع عليها فمن ناحية يروون قصائد تبتدئ بالنسيب يرجع زمانها إلى أقدم من زمان المهلهل «مثل المزهر للسيوطى» ومن ناحية أخرى هناك روايات عالية تؤكد أن أول الشعراء هو امرؤ القيس وزمانه متأخر قليلاً عن زمان المهلهل، كذلك يقال: إن أعشى قيس – وشيخو يضع تاريخ وفاته سنة ٦٢٩م – كان أول شاعر تكسّب بشعره، بيد أن عبيد الأبرص – وكان أسبق من الأعشى بوقت طويل – كان أستاذاً فى هذا اللون من الفن ثم إن عنترة العبسى وهو أسبق قليلاً لم يكره أو لم يكن بمنأى عن هذا الصنيع أى التكسب بالشعر..

إذن عنترة شخصية حقيقية موجودة بقصائدها وزخمها الخاص فى فروسية المعارك «ويجب ألا ننسى قول الرسول الكريم فيه صلى الله عليه وسلم – حيث كانت وفاة عنترة قبل هجرته عليه السلام بأقل من أربعين سنة» وهو ما لم ينكره هؤلاء الباحثون الجادون إنكار الدكتور طه حسين لوجوده ذاته على الرغم من رأيه الخاص فى المعلقة «فى حديث الأربعاء» والذى جاء فيه حول الاختلاف فى القصيدة:

«فإنى أحس كأنّ القصيدة طائفة من الأنغام الموسيقية الكثيرة المختلفة فيما بينها أشد الاختلاف» ويعود ليقول: «ولكن فيها نغمة واحدة متصلة منذ تبدأ القصيدة إلى أن تنتهى، تظهر واضحة حيناً وتحسّها النفس وإن لم تسمعها الأذن حيناً آخر وهى النغمة التى تكوّن صاحبته واستحضار صورتها فى نفسه منذ ابتدأ إلى أن انتهى» كما انتهى الدكتور طه إلى نتيجة أخرى وهى أن كثيراً من أبيات المعلقة قد جرى مجرى الأمثال وفى آخر دراسته لهذه القصيدة يقول «كل القصيدة جيدة وكل أبياتها خليق أن نطيل الوقوف عنده والتفكير فيه والإعجاب به».

وعلى رغم هذه الإشادة إلا إنه شكّ فى نسبتها إلى عنترة..!!

ولكن ما يؤكد نسبة القصيدة إلى عنترة هو اشتراكه فى حرب داحس والغبراء وما جاء فى القصيدة من بعض أحداث هذه الحرب خاصة قتله لضمضم المرى وما إلى ذلك من أحداث بالإضافة إلى إنه من الشعراء المكثرين حيث يقول ابن سلام: «وله شعر كثير وكثرة شعر عنترة ثابتة».

أما من ناحية وجوده التاريخى فإن الطريق من عيون الجواء يثبت الكثير فهناك صخرة عنترة التى سبق الإشارة إليها وقد وقفتُ عندها متفحصاً لبعض النقوش المرسومة عليها والتى لم تتعد كونها رسماً للإبل والماعز بشكل بدائى ولكن مرافقى حمد العلى الزيدان قال: إنها رسوم الرعاة القدماء وأن أغلبها مطمور تحت الأسماء «الحديثة» التى كتبها أصحابها أو نقشوها «للذكرى» مما شوّه الكثير من هذه النقوش الباقية، وذكر الزيدان أنه صَاحَب بعثة أثرية أمريكية منذ عشر سنوات أثبتت أن هذه الصخرة لعنترة أو لعلها كان ملتقاه بعبلة وقالوا إن تاريخها يعود لألف وخمسمائة سنة مضت، وذكر الدكتور عبد العزيز الفيصل «الجواء جمع جوّ، بلد فى القصيم به صخرة تعرف بصخرة عنترة»، وبعدما قمت بتصوير الصخرة من جميع الزوايا وقفتُ على صخرة أخرى بعيدة عنها وإن كانت أقل ارتفاعاً لأكتشف إشراف صخرة عنترة على وادى عيون الجواء على رغم وقوعها فى «غاف الجواء» ولعل أهمية إشرافها هو الذى دفع عنترة إلى الوقوف على المكان واختياره الدائم لها.

وقد نصحنى الزيدان بالذهاب إلى بلدة قصيباء التى تقع على مبعدة ستين كيلومتراً من الموقع وقال: إن بها قصراً أو آثار قصر لعنترة وبها إحدى آباره التى كانت تسمى «العنتريات» وأن المقيمين أسفل الجبل الذى تقع عليه هذه الآثار يتميزون بسواد اللون والملامح الإفريقية وقال إن الكثير من بدو الناحية يؤكدون أن هؤلاء «الأفارقة» قد ينتمون إلى عنترة ذاته، خاصة وأنهم لم يبارحوا المكان منذ أجيال وآماد عديدة و «طويلة» أيضاً.

ومع ازدياد الرغبة فى معرفة المكان توجهت فى اليوم التالى إلى قصيباء على طريق «القرعاء – قصيباء» وبدأت بمركز إمارة قصيباء لألتقى وأميرها فهد الراضى أو «أبو فيصل» كما يحلو لأهل المنطقة تسميته، والذى قام بواجب الضيافة العربية كاملة، وبعد تناول الغداء أوعز إلى ابنَىْ عمه: صالح محمد آل راضى عمدة البلدة، وصالح سليمان الراضى وهو مدرس للغة العربية، بمصاحبتى فقاد صالح – المدرس – السيارة «اللاند روفر» القوية على الطريق إلى قصيباء القديمة حيث قمت بتصوير معالمها الخاوية متذكراً ما قاله الأمير فهد الراضى من أنها كانت مأهولة بالسكان منذ عشر سنوات خلت وعلى رغم ذلك فمازالت آبارها جارية مثل بئر عين العمودية أو المشقوقة والتى رأيت ماءها الجارى لكن الطحالب كانت نامية وكثيرة مما يدل على عدم رعايتها بسبب هجر المكان، وبعد تفقُّد بيوتها القديمة التى صعدنا أسطح بعضها بحرص لأنها على وشك الانهيار، بدأنا الطريق إلى جبل قصيبا الغربى الذى يقع عليه قصر عنترة، والجبل يشرف على واد كثير الزرع والنخيل ووارف الظلال، وقبل الصعود إلى الجبل توقفنا عند أحد الآبار التى حفرها عنترة وسميت بالعنتريات وقال مرافقاى: إنها المتبقية حيث طمرت الباقيات تحت عوامل التعرية التى نحتت الجبل وابتعدت به مسافة لا تقل عن خمسة عشر متراً، حيث كان يشرف على الآبار مباشرة وحيث تناقلت الأجيال أن عنترة كان يلقى بالدلاء بواسطة الحبال من أعلى الجبال ليسحب الماء مباشرة دون حاجة إلى هبوط الجبل، ولم أجد إشارة إلى هذا القصر إلا فى كتاب «معجم بلدان القصيم» لمحمد بن ناصر العبودى حيث قال (ص ١٥، ٢٠):

«قصر عنترة» : بلفظ القصر مضافاً إلى عنتر (بفتح العين وإسكان النون وفتح التاء ثم راء أخيرة) وهذا اسم عنترة بن شداد العبسى كما تعرفه العامة فى نجد.

و «قصـر عنـتر» بقيت أطلاله وهى أصـول جدران مبنية بالحجارة وشـىء من الجـص فـى مكان منيع على رابية تقع على رأس الجـال (الجبل) الغربى المرتفع لقصيبا فى شمال القصيم.

وتحيط به الشـقوق الصخرية العميقة، التى لا يمكن اجتيازها حتى للسائر على قدميه إلا مع طريق ضيق.

ويضيف العبّودى «ليس لدينا عن تاريخ هذا القصر شـىء مكتوب يوثّق به وكل معلوماتنا عنه تقتصر على ما نسـمعه من أفواه العامة وبعضه يشـبه الأساطير ولكن الأسـاطير فى بعض الأحيان تكون لها جذور من الحقيقة أو ظل منها على الأقل».

وتقـول العامـة من أهل قصيبا : إن هذا القصر كان لعنترة بن شـداد العبسـى، وأنـه كان مقيماً فيه، وأنه كان قد حفر أسـفله خندقاً بقيت بعض آثاره وأنه كان يدخل منه فيصل إلى خارج قصيبا عبر نفق كان فيه، وأن الحاج العراقى (أيام حج الجاهلية) كان يرد إلى العنترية إحدى الآبار التى تسمى الآن العنتريات والتى تقع أسفل هذا القصر وقد سبق ذكرها، وأنه كان يأخذ على الحاج خَفَارة (إتاوة) مقابل ورودهم ماءه، وأن الحجاج كانوا يلقون منه العناء بسـبب عدم وجود ماء فى تلك المنطقة ولذلك بحثوا عن ماء آخر فوجدوا أن عنترة كان قد طمّ (ردم) آبار «الصوال» التى تقع إلى الشـرق منه فى الجال الشـرقى لقصيبا فاحتالوا عليه بأن أعادوا حفر آبار الصوال وشربوا منها فلحقهم عنترة وهم خارجون من قصيبا مع «الدروب» التى كانت تسـمى «دروب الحاج» وتجاوزهـا إلى فيضة الحاج يترنم بهذين البيتين من الشعر العامى :

أنا عنتر بن عبـــــس لِوَى قاسى الحديد ومالْوَيت
آخذ من حقى وأخـــلى كِنّى راضى لـو مارضيـت

وأشفقت على نفسى ومن معى من الصعود إلى هذا الارتفاع الكبير، لكنهما قالا : إنهما يعرفان كل المسـالك والدروب المؤدية إلى قمة الجبل، وبدأنا بأحد المدقات،

وهى طريق شبه ممهدة تنتهى صعوداً لكن السيول والأمطار التى تغمر المكان بينَ حين وآخر تركت أخاديد غير عميقة بالطريق وغير خطرة، والخطر يتمثل فى الطريق الصاعد الذى لا يحدّه عن القاع البعيد شىء، لكن مهارة المدرس صالح حالت دون التفكير فى هذا السقوط، وفى نهاية الطريق وجدنا سطح الجبل ممهداً لكنه ملئ بالأحجار الصغيرة التى جعلت السيارة تهتز وكأنها تمشى على مسامير متراصة، وعلى بُعدٍ غير قليل من الحافة توقفت السيارة لأجدنى فى مواجهة أمواج من الهواء تكاد تقتلع قدمىّ، بل لقد «طارت» النظارة من فوق أنفى فأسرعت بالتقاطها خشية أن تذهب بها الرياح إلى القاع الذى بدت فيه النخيل كأنها أعواد صغيرة خضراء، وقال لى صالح (المدرس) أن القصر كان كبيراً وهو ما كانت تدل عليه وفرة الجدران فى الأنحاء، بيد أن بعثة أثرية مشتركة بين جامعتى الملك سعود (وقتها كان اسمها جامعة الرياض) وبين جامعة القاهرة المصرية «كلية الآثار» – فى السبعينات الميلادية – قامت بالتنقيب فى المكان وحصلت على بعض العينات من السور والجص الذى كان «يمسك» بصخور الجدران، وذلك قبل انهيار بعض الأسوار، وعلى مسافة غير بعيدة وجدتُ أحد الأبراج القديمة التى ذكر صالح العمدة أنها كانت نقاط مراقبة عثمانية تشرف على الوادى من الجهتين وكان الشك يداخلنى بالنسبة لحقيقة قصر عنترة فقلت لم لا يكون عثمانياً هو الآخر، وحاولت دخول نقطة المراقبة فوجدت صعوبة فى ذلك بسبب تراكم الأجزاء المتهدمة فى الداخل لكنى تفحصت الجدران فوجدتها مكونة من الطوب اللبن بينما تتكون بقايا أسوار قصر عنترة من الصخور الجراتينية المشقوقة والتى تعتمد فى تراصّها على الجص وعلى التركيب الفراغى ذاته، وهى نفس الطريقة التى كان القراعنة يقيمون بها جدران بيوتهم ولعل هذا ما يفسر صمود أجزاء كثيرة من هذه الأسوار أمام عوامل التعرية المختلفة من رياح وأعاصير وأمطار تصل حد السيول، والفعل الجيولوجى الذى يزحزح الجبال سنتيمتراً واحداً كل عام.

بعد قرابة الساعتين أتممت فيها تصوير المكان من جميع جوانبه، بدأنا الهبوط.. وهى رحلة أشق من الصعود لأن السيارة تتدحرج بسرعة أكبر من سرعتها الصاعدة، لكننا وصلنا «الأرض» بسلام، لنتجه إلى القرية القديمة المهجورة معظم دورها

والواقعة أسفل الجبل بالضبط ونقول معظم، لأن بعض العائلات لاتزال موجودة فى المكان وهم بالفعل من ذوى البشرة السوداء الأمر الذى قد يؤكد ما يذهب إليه أهل منطقة الجواء عموماً - والبدو منهم على الأخص - من أن هؤلاء الناس ينتمون لعنترة العبسى أو أنه جدهم الأكبر، ولما كان زواج عنترة من عبلة غير مؤكد مثلما لم يكن مؤكداً أنه أنجب من أى زواج آخر، فإن الأمر لا يستقيم على هذا النحو خاصة وأن شجرة نسب بن عبس الذى ذكرها الدكتور الفيصل فى كتابه «شعر بنى عبس» لا تشير إلى أحد ولد لعنترة..!

وقطعاً للشك من اليقين قلنا لنلتقى ببعض هؤلاء «قريبى الشبه» بعنترة أو أحد أحفاده.. فالتقينا و «سالم العلى أبو عسكر» وهو شيخ طاعن فى السن يتجاوز السبعين عاماً وتدل أوصافه على كثير من الشبه مما نحفظ فى المخيلة من ملامح لعنترة، لكنه قال: إنه لا يعرف إن كان ذلك صحيحاً أو لا، وإن حكى لنا حكاية العنتريات وأكد على أن القصر لعنترة وأن مصدر هذا التأكيد ما تناقله الآباء عن الأجداد خاصة وأنهم لم يبرحوا هذه الأرض منذ مئات السنين، وبالفعل وجدت معظم أهل المنطقة يعملون فى زراعة المكان، وأن بعض الصغار مازالوا يرعون الأغنام على رغم دخول الحياة العصرية إلى المنطقة حيث قامت الحكومة السعودية بمد الكهرباء والمياه إلى هذه المنطقة النائية التى لا تزيد بيوتها على الطابق الواحد، والتى تطل منها هوائيات التليفزيون، ما يثير عجباً من التمسك بالمكان والبعد عن حياة المدينة على رغم وجود وسائل مواصلات حديثة مثل سيارات نصف النقل «الوانيتات» أو بعض السيارات الأمريكية من بعض الماركات الشهيرة.

أما عبدالله سليمان النومان فقابلنا ضاحكاً: أنا عنتر المكان، ولم يزد فى معلوماته عن معلومات أبى عسكر، وإن ذكر أن ارتفاع الجبل يزيد على مائة وخمسين متراً، وإن اتفق مع أبى عسكر وكلمات العبودى من أن عنترة كان يحصل على «جمرق» أو «جمرك» أو جباية من حجاج الجاهلية المارين، وكان فى كلماته ما أضاء علينا بعض الشىء حيث قال: إنهم كانوا يقولون - وذلك على مر الأجيال - أن عنترة كان يعيش وحيداً فى القصر، وهو ما يشير إلى التأكيد بعدم زواجه من

عبلة أو غيرها، وأنه كان كالوحش، يخشى الناس الصعود إليه لسرعة اهتياجه، وأن العقلية الجمعية الشعبية تحفظ أن صرخاته كانت تملأ الوادى، فلما تلفّت حولَ ووجدت المكان شاسعاً للغاية ابتسمت من مثل هذه المبالغات، لكن الذى لم يقنعنى أنه إذا كان عنترة قد شارك فى حرب داحس والغبراء – وهذه حقيقة مثبتة – فمتى توفر له الوقت لبناء مثل هذا القصر، ثم لماذا كان يعتزل الناس فيه، ولذلك عدت إلى بعض الكتب القديمة فوجدت أن الحرب لم تكن مستمرة بالمعنى الاضطرادى للاستمرارية ولكنها كانت – مثل جولاتنا «السابقة» مع آل صهيون – تشتعل فترة وتخمد فترات، ولعل هذا هو السبب فى أنه بنى سوراً عالياً عند نهاية الجبل يحمى ظهره من المتسللين وأنه صنع نفقاً ييّسر له «دخول» الجبل والخروج منه، وإذا كانت الأحوال طبيعية و «الدار أمان» فما كانت كل هذه الاحتياطات ضرورية..!!

وأتم النومان حديثه بحماس عن سيرة أبى زيد الهلالى والذى ذكر أنه عاش قريباً من المنطقة..!!

وعدنا إلى مقر إمارة قصيباء ليذكرّنا أميرها الشاب فهد الراضى بأن قصيباء كان اسمها القديم «قو» وهى التى أشار إليها عنترة فى قوله:

كأن السرايا بين قوّ وقارة عصائبَ طيرٍ ينتحينَ لمشربِ

وجاء ذكرها فى قول عمرو بن شأس الأسدى:

غشيت خليلى بين (قوَ) وضارج فروض القطا رسماً لأم المُسَيَّبِ

ومثله جاء قول طرفة بن العبد:

لخولة بالأجزاع من أضَم طَلَلْ وبالسفح من (قوَ) مقامٌ ومُحْتَمَلْ

وأيضاً قول الحطيئة وهو من بنى عبس:

ولم تحتلل جنبى أثالٌ إلى المَلاَ ولم ترع قَوّاً جِذيمُ وأسيدُ

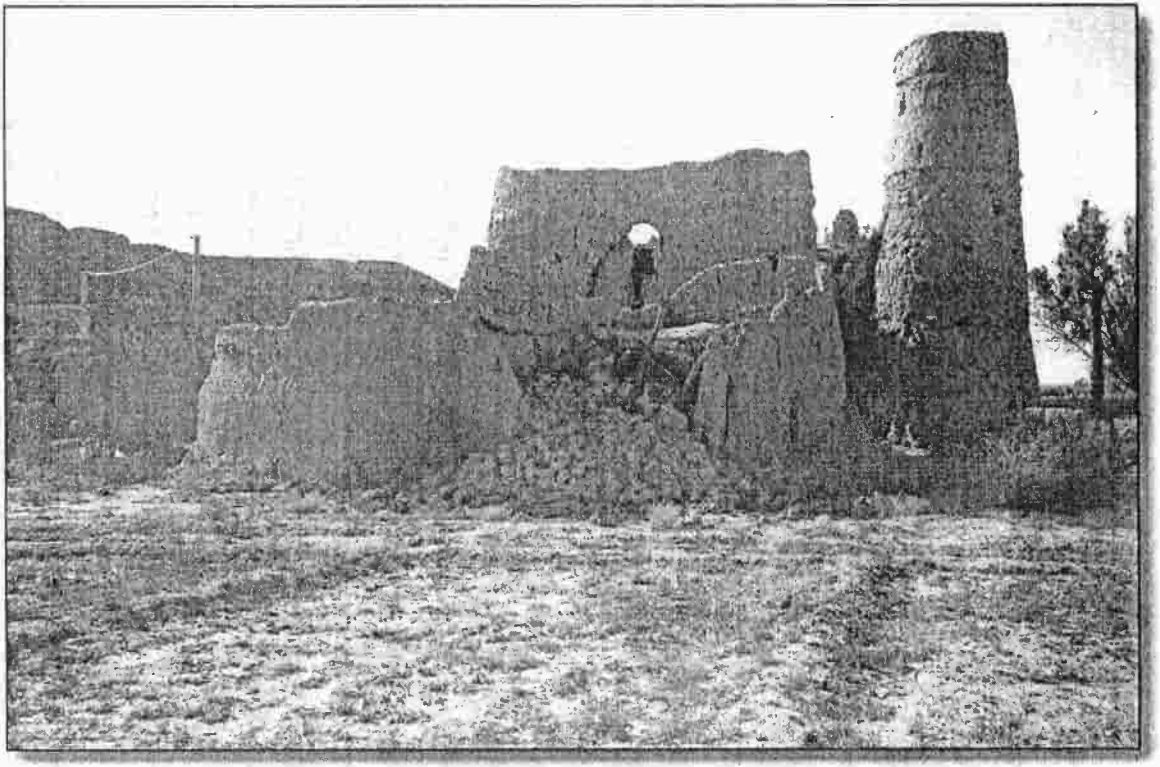

أطلال قرية عيون الجواء التي أقيمت على أرض مضارب مالك بن قراد والد عبلة.

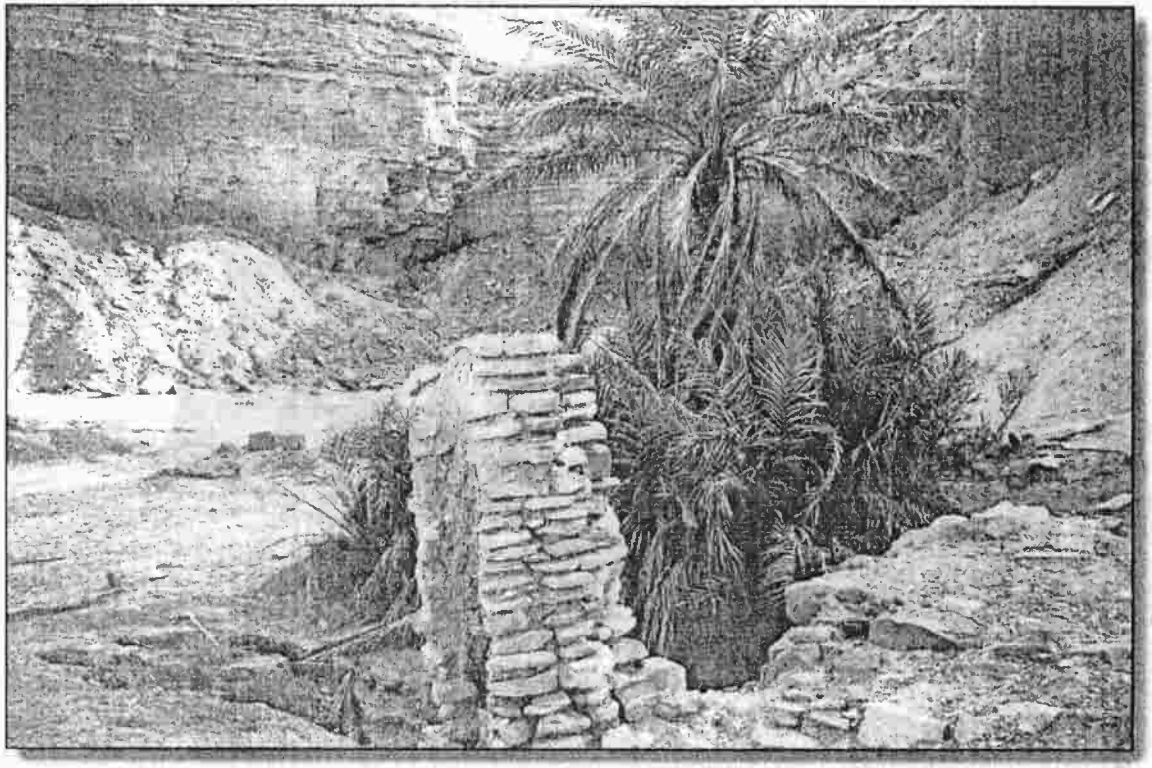

إحدى العنتريات «أى الآبار» التى كان يسقى منها عنترة حجاج البصرة فى الجاهلية.

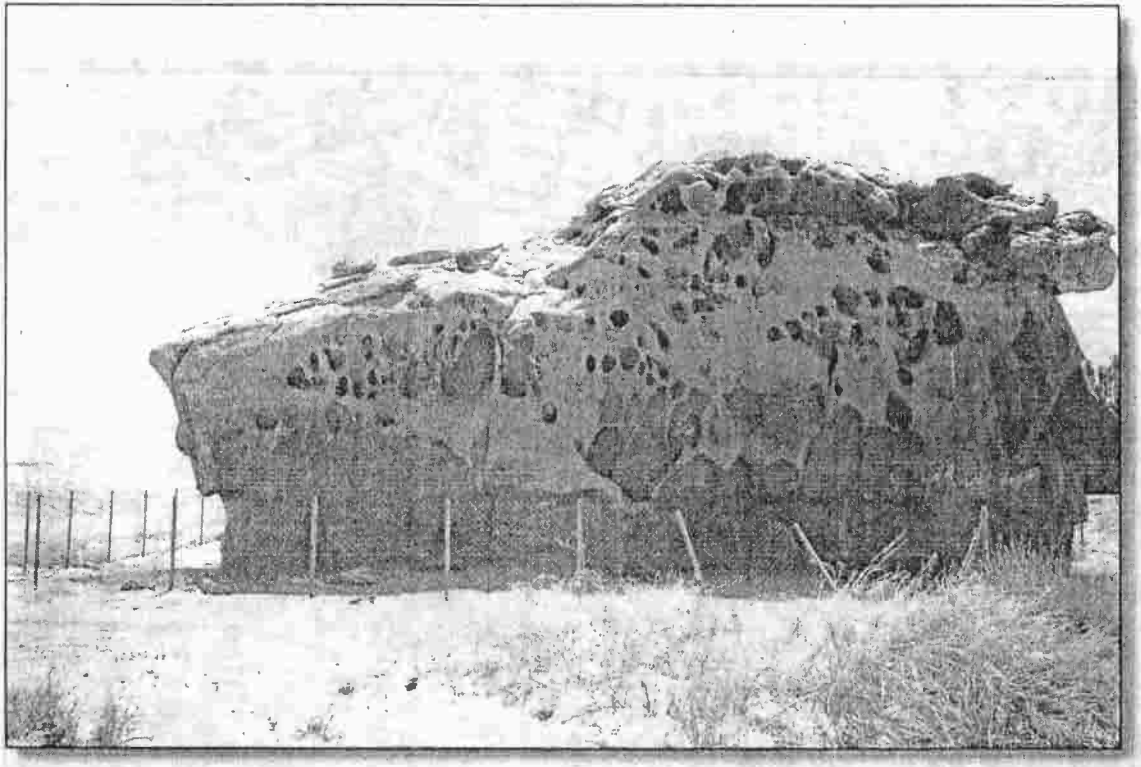

لقطة جانبية لصخرة عنترة فى وادى «عيون الجوا».

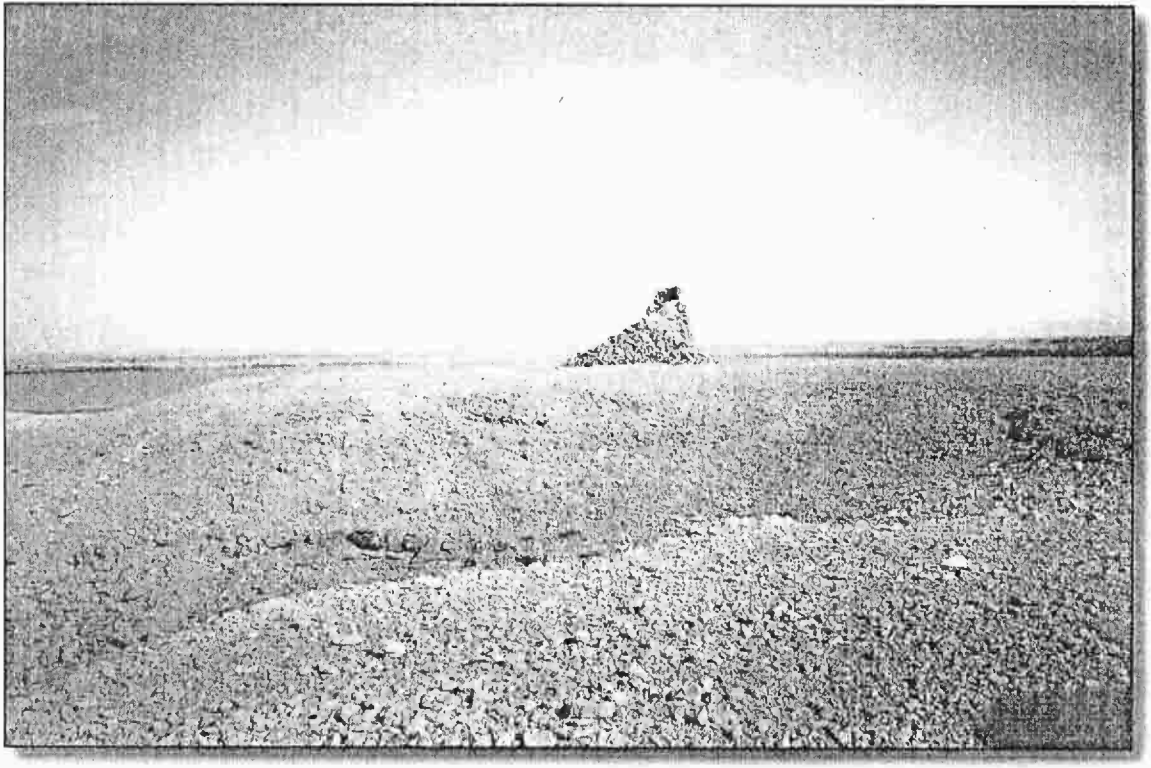

جزء من أسوار قصر عنترة أعلى جبل «الجال» الغربى فى منطقة قصيباء.